صور من الشعر الحديث في العـــراق

للاستاذ ابراهيم الوائلي

الرصافي [1]

لا نستطيع أن نذكر ما للرصافي من أثر كبير في نهضة الشعر الحديثة في العراق وما لصوته من الصدى المدوي في دنيا العرب ، فقد حمل قيثارة الشعر بداعب أوتارها المتنوعة ويرتل عليها أنغامه المختلفة هاتفا بمجد أمته منادياً بوحدتها واستقلالها داعياً لتخفيف آلام الانسانية المعذبة الحائرة في بيداء الحياة .

كانت أنغام الرصافي تنبعث من أعماق القلب حينا ومن آفاق العقل حينا آخر ؛ فهو حين يندمج بالحياة الاجتماعية ويواكبها في ساعات الألم ولحظات الهدوء يستوحي عاطفته وإحساسه فتستجيب له العاطفة ويواتيه الاحساس فيترجم تلك الانفعالات نغما حزينا باكيا ولحنا مرح القاطع هادىء النبرات ، وحين يخلو إلى الطبيعة في عزلة عن صخب المجتمع وضوضاء البشر يستلهم عقله وتفكيره ويعرج إلى آفاق السماء فيصف الكون وما فيه من صور وأعاجيب ونجوم وأملاك ، ويهبط إلى الطبيعة من حوله فيتحسس جمالها ومتابعها وما فيها من فتون وروعة ويتمم ويتغنى ويفصح عن خلجات وجدانه بما يواتيه من تعبير وأداء .

كان الرصافي عاطفيا حساسا حين ينظم في السياسة والاجتماع ، وحين يتغزل ويمدح أو حين تصفو له الأجواء لحظة من لحظات العمر . وكان وجدانيا حين يصف الطبيعة وما فيها من مباهج وصور ومنابت وأطيار وجداول ومروج ، أو حين يصف حريقا أو مخترعا جديدا . وكان فيلسوفا حين يتجرد إلى عقله وتأملاته الكونية ، ولكنه في الثانية والثالثة يخاتل حياته ويخالس طبيعته فلم يؤلف من وصفه وفلسفته ما يناهض تيار العاطفة وتموجات الاحساس فقد خلق الرصافي عاطفي النبع يتحدث إلى قلبه ويتحدث قلبه إلى موسيقاه ومن ثم تعبر هذه الموسيقى عن خواطر وأحاسيس تمثل روح الشاعر وقلبه وما في هذه الروح وهذا القلب من صور حية نابضة بالحركة والألوان .

ويجب أن نحدد مسارب هذه العاطفة عند الشاعر ونسير معها إلى ينبوعها الأكبر لنضيق دائرة البحث في مركز واحد .

إن عاطفة الرصافي تستمد صورها من السياسة والاجتماع والغزل والمدح وما يشبه هذه الألوان . ولكن الينبوع الأكبر لعاطفة الشاعر هو السياسة والمجتمع إذ فيهما تبدو هذه العاطفة

(١) توفي الرصافي في ١٦ مارس سنة ١٩٤٥

وقد كان لهذه التسمية الخاطئة أسباب ودوافع ، بل أغراض ومطامع ؛ فلاشك أنه مما يسر بريطانيا أن تمنح ماليس لها بحق حين يقال إن هذه المحميات تابعة لها خاضعة لسلطانها ، فذلك كسب استعماري كبير تطمع أن تناله ، كما أن بعض الذين يحاولون توجيه السياسة اليمنية يرجون من وراء هذه التسمية أن يقع في وهم العرب أن تلك السلطنات أو الامارات المستقلة في جنوب شبه الجزيرة هي أجزاء من مملكة اليمن اقتطعها الاستعمار عن وطنها الأم ليفرض عليها سيادته ، وسلطانه ومن الحق والواجب أن تعود إلى أحضان اليمن كما كانت .

وقد وقر هذا المعنى الخاطىء في نفوس كثير من الناس ، وساعد على استقراره انزال هذه السلطنات أو الامارات في ركنها الجنوبي منطوية على نفسها لا تحاول دعاية في بلاد العرب ولا في غير بلاد العرب .

على أن بعض الدعايات المادية قد نشطت منذ قريب لتشويه الوضع السياسي لسلطنة الجنوب تحقيقاً لبعض ما أشرنا إليه من الأغراض والمطامع ، بدأ ذلك جلياً حين تقدمت سلطنة لحج وإلى الأمانة العامة لجامعة الدول العربية طالبة قبولها عضواً في الجامعة ، أو تمثيلها في بعض لجانها الثقافية ، فقد بدر يومئذ صوت معارض يزعم أن سلطنة لحج (محمية) لا يسوغ لها الانضمام إلى الجامعة ، وأنها ليست إلا جزءاً مقتطعاً من بلاد اليمن لا يسوغ أن يكون له ممثلون في الجامعة)

أحمد طه السنوسي

جلية واضحة وتكثر صورها الشعرية . أما موطن هذه العاطفة في أكبر ينابيعها فهو ذلك القلب الذي تفتح في دنيا كثيرة السخب قاتمة الآفاق عارمة الزوابع ، دنيا تعبث بها سياسة قاسية هوجاء ومسلطون جائرون فلا عدل ولا إصلاح ولا علم ولا حرية ؛ فقر وحرمان ، وظلم واستهتار ، وخضوع وذل ، ووشاية ورشوة ، وسجون ومعاقل ، وشباب يقدمون قرابين على مذابح الشهوات ، وسياط تتخضب بدماء المتون والظهور في المدن والقرى ، وطبقات لا يؤلف بينها منهج ولا نظام . تلك هي دنيا العراق حين أطل عليها الرصافي فكان من البديهي أن يتأثر ذلك القلب ويتألم ويعبر عن تأثره وألمه بعد أن اكتملت الأداة عند صاحبه وطاوعته الموسيقى اللفظية أحسن مطاوعة . وهكذا ثار الرصافي وندد بالسلطان والولاة ووصف السجون وما فيها من ظلام وتعذيب ، ودافع عن المرأة والعامل والفلاح .

وإذ نحن بصدد البحث هنا في شعر الرصافي الذي نظمه أيام الاستبداد العثماني وحين عودة الدستور فلا يسعنا إلا أن نقصر البحث على ما نحن بصدده تاركين الألوان الأخر إلى فرصة ثانية .

لا شك أن الرصافي مر في أدوار عدة من تأريخه السياسي أو مرت به أدوار سياسية متعددة مختلفة فقد نشأ النشأة الأولى في بغداد وهو محدود الفكر ضيق الشعور لا يعبر إلا عما تقع عليه عينه في بغداد وما حواليها ولا يتأثر إلا بما يسمع من الأحاديث ويقرأ من الصحف والمجلات وهي قليلة في ذلك الوقت . ثم طاف بالبلاد العربية وبخاصة سوريا وفلسطين ، وسافر إلى تركيا وشاهد مواطن البذخ والترف على البسفور والدردنيل فأثرت في نفسه تلك الفوارق الاجتماعية بين رعايا مغرقين في تيار الذل والحرمان وبين أسياد يعيشون في أبراج الذهب والحرير ، بين رعايا مكبلين بالحديد والأغلال وحكام تتمرغ أنوفهم بمطر الحياة وتدوس أقدامهم أشلاء العبيد الصاغرين فاذا الرصافي يثور على الظلم والاستبداد ، وإذا بهذه العاطفة التي كانت حبيسة في أفق ضيق محدود قد تغيرت وتبلورت بهذا الأفق الرحب ومشت في ركاب الحياة الواقعية الصريحة تندد بالخليفة الجائر والولاة المستبدين وتنفخ روح الثورة في الجماهير المظلومة الصاغرة . ثم جاء دور الأحرار ودعاة الدستور فاتصل بهم الرصافي وشاركهم في شعورهم وأيدهم في مواقفهم حتى إذا أعيد الدستور تلقاه فرحا مستبشرا وحياه بأكثر من قصيدة ومجد زعماءه وأنصاره . حتى إذا كانت نهاية الأتراك على يد الاحتلال الانجليزي في الحرب العالمية الأولى أخذت عاطفة الرصافي تموج وتضطرب وتثور ولا تستقر لأنها أحست بلفحة النار تسري في الوطن العراقي الجريح ، وتتمشى في الأفق العربي الداكن ، وتتمدد في البلاد الاسلامية المنكوبة ؛ فمن حق الرصافي أن يثور ويضطرب حين وجد الحياة داكنة مدلهمة تعصف بها الزوابع والأعاصير من كل جانب وتعيش في السياسة العثمانية الجائرة . ومن حق الرصافي أن يهدأ ويطمئن حين عاد الدستور فعادت الحرية إلى طلابها وشداتها . ومن حقه أن يعود إلى ثورته وجيشانه حين جاء الانجليز فاتحين مستعمرين وظلوا فاتحين مستعمرين يعدون ولا يفون ، ويأخذون ولا يعطون ، ويشاركون في كل رأي ويتدخلون في كل أمر وفي كل مرفق . فكان بديهيا أن يقف الرصافي منهم موقف الساخط الثائر ، وكان بديهيا أن يحن إلى الأتراك وقد ذاق حلوهم كما ذاق مرهم ولم يجد من الانجليز ما ينسيه عهدهم . وهذا هو السر الذي جعل الرصافي يعيش أواخر عمره وقد سدت عليه منافذ الحياة وضاقت دونه مسارب العيش إلى أن ودع الحياة بين خصوم يتهمونه بالنزعة التركية والتمرد على بعض العادات ، وبين أصدقاء معجبين فهموا شعره وقدروا فيه عاطفة الشاعر العميق الاحساس الذي يملي أفكاره ونزعاته ولا تملي عليه الأفكار والنزعات .

إن خصوم الرصافي يأخذون عليه توده للأتراك في بعض المناسبات ومدحه لبعض ملوكهم وولاتهم ودفاعه عنهم في بعض حروبهم ، وبكاءه عليهم حين تقاص ظلمهم من العراق إلى جانب ثورته عليهم . ثم مواقفه التي لا ترضي بعض الحكام في تاريخ العراق الجديد وقد فات هؤلاء الخصوم أن عاطفة الشاعر — كأي شاعر أصيل النبع — لا يمكن أن تستقر على حال أو تجنح إلى شاطىء واحد بل هي متنقلة متحولة من الشمس إلى الظل ومن الجبال إلى السهول كالطائر الذي لا تسع جناحيه الآفاق ولا يستقيم له وكر .

إن الشاعر العاطفي الحساس قد ينظر إلى الحياة والاشخاص وما حوله من الصور والألوان نظرة تختلف عن غيره من سائر الناس فقد يحس باللذة في موطن الألم ، وبالجمال في موطن القبح

وبالصخب فى مجال الهدوء ، وقد تنعكس هذه الصور عنده وما عليه إذا غضب الناس أو رضوا مادام يعيش فى عالمه ويستجيب لقلبه وعاطفته . وبمثل هذا الرأى نستطيع أن ندافع عن الرصافى فى مواقفه التى كبرت على خصومه وظنوا أن بها استخفافا ببعض المظاهر الاجتماعية وخروجا على بعض التقاليد ناسين أن الشاعر الذى يستوحى خلجات نفسه وهواجس قلبه لا يقيم وزنا لمذهب « بلونارك » الذى يريد من الشاعر أن يكون أخلاقيا فحسب ! ! .

وليس الرصافى واعظا على منبر أو خطيبا فى مسجد وحتى الوعاظ والخطباء قد يكون لهم من اللحظات مايشعرون فيه بوجود آخر غير وجودهم الدينى فكيف الشعراء ؟

وإذا كان لابد من الدفاع المادى عن مواقف الرصافى السياسية التى أغضبت بعض الناس فان الدراسة التحليلية لشعره كفيلة باستجلاء الحقيقة لأن شعره يدل على أنه لم يكن ليستجيب للافراد على حساب الجماعات أو يرضخ للتنويم المغناطيسى يفعل به مايشاء لجميع مواقفه التى فسرها الخصوم تفسيرا سطحيا لمسا ما يبررها وليس فيها مايؤيد زعم هؤلاء الخصوم كما سيأتى ، ولو أراد الرصافى لنفسه موقف الصانع المواربب — ان فى عهد الأتراك أو عهد الانجليز — لكانت حياته المادية غير التى قضاها .

يضاف إلى هذا أنه لم يكن وحده مؤيدا لسياسة الأتراك — وهى سياسة فى مجال الدستور — بل شاركه فى مجـــال التأييد الزهاوى والكاظمى وشوقى وحافظ وغيرهم حتى بلغ من تأييد حافظ للاتراك تهجمه على الثائرين فى الحجاز على الدولة العثمانية .

إن الرصافى قد أدى رسالة الشعر فى حق الشعر وأدى رسالة الشعر فى حق العراق والبلاد العربية ، وأدى هذه الرسالة فى حق المسلمين والانسانية عامة .

هذه كلمة موجزة عن حياة الرصافى السياسية كما وجدناها فى شعره وفى الظروف والملابسات التى رافقها والأدوار التى اجتازها وقد وقفنا منه موقفا يتردد بين التحليل والدفاع مستندين فى ذلك إلى طبيعة الشعر وعنصره العاطفى وإلى السياسة التى كانت آنذاك فى تبلبل واضطراب ، وسنترك للنماذج التى سنختارها وندرسها تعزيز الرأى وإيضاح الدراسة مقتصرين من هذه النماذج على مرحلتى الاستبداد وعودة الدستور ثم ماقاله الشاعر فى مدح الأتراك ومقدار صلة هذا المدح بالواقع الذى يبرره والظروف التى تحتمه .

للرصافى قصائد كثيرة فى الثورة على الاستبداد العثمانى وفى ثورته عنف وشدة . وقصيدته « إيقاظ الرقود » ألمع دليل على هذه الثورة العنيفة فقد جاء فيها :

إلى كم أنت تهتف بالنشيد وقد أعيتك إيقاظ الرقود
فلست وإن شددت عرا القصيد بمجد فى نشيدك أو مفيد
لأن القوم فى نوم بعيد
إذا أيقظتهم زادوا رقادا وان أسمعتهم قعدوا وئودا
فسبحان الذى خلق العبادا كان القوم قد خلقوا جمادا
وهل يخلو الجماد من الجمود ؟

هؤلاء هم قوم الرصافى وأبناء وطنه كما يراهم فهم لا ينتبهون من غفلة ولا ينهضون بعد قعود ولا يثورون على حكومة جائرة عاتية فهم كالجماد الذى لا يحس . ثم ينتقل إلى وصف هذه الحكومة وينذرها بعاقبة الظلم والجبروت :

حكومة شعبنا جارت وصارت علينا تستبد بما أشارت
فلا أحد دعته ولا استشارت وكل حكومة ظلمت وجارت
فبشرها بتمزيق الحدود

ويشير إلى أن هذا الجور والسكوت عليه لم يكن سببه إلا الجهل حتى أدى هذا الجهل إلى تحكم عبد الحميد :

سكتنا من جهالتنا بقاعا يجور بها المؤمر ما استطاعا
فكدنا أن نموت بها ارتياعا وهنا أمة هلكت ضياعا
تولى أمرها عبد الحميد

وهنا تشتد الثورة فى نفس الشاعر وتطغى العاطفة الحانقة فيخاطب عبد الحميد بلهجة عنيفة :

أقول وليس بعض القول جدا لسلطان تجبر واستبدا
تعدى فى الأمور وما استعدا : ألا يا أيها الملك المفدى
ومن لولاه لم نك فى الوجود
أنم عن أن تسوس الملك طرفا أقم ما تشتهى زمرا وعزفا
أطل نكر الرعية خل عرفا سم البلدان مهما شئت خسفا
وارسل من تشاء إلى اللحود
تنعم فى قصورك غير دار أعاش الناس أم هم فى بوار
فانك ان تطالب باعتذار وهب أن الممالك فى بوار
أليس بناء يلدز بالمشيد ؟

للكلام بقية

ابراهيم الوائلى